الأزبكية عندما كان اسمه نيو برتش هوتيل وكنيته شبرد نسبة إلى مديره النشط، وموقعه التالي في شارع إبراهيم باشا، الجمهورية حاليا. وأسرف خيالي في توقعاته وبدا لي أنني سأجد في الكتاب تفاصيل وطرائف كتلك التي استوقفتني في كتاب «توجهات» لرونالد ستورز الذي كان موظفا في الإدارة البريطانية في مصر في العقدين الأولين من القرن العشرين، ثم انتقل إلى فلسطين ليصبح أول حاكم عسكري للقدس بعد احتلال القوات البريطانية لها في ديسمبر ١٩١٧. يحكي ستورز عن هاري بُويْل السكرتير الشرقي في القاهرة أيام اللورد كرومر. (السكرتير الشرقي، يقول ستورز، يعمل في الظل، من مهام منصبه الاستخبارات العسكرية وغير العسكرية، عينان وأذنان تنقل ما يدور في مصر للخارجية البريطانية وتشرحه وتفسره). لم يكن مظهر بُويْل يشي بأهميته ولا معارفه الواسعة: معطف قديم، بنطلون مرتخ مترهل، وقبعة مجعدة، وحذاء يبدو مستعارا من القرون الوسطى. كان بُويْل يجلس في شرفة شبرد، يتناول الشاي عندما تقدم منه شخص لا يعرفه، وبادره بالسؤال: سيدي، هل أنت قوّاد الفندق؟ أجاب السكرتير الشرقي دون توقف ولا انفعال: نعم يا سيدي، ولكن الإدارة تسمح لي، وهذا كرم منها، براحة من الخامسة إلى السادسة، لتناول الشاي. إن كنت مضغوطا وفي عجلة من أمرك ربما عليك أن تسأل ذلك السيد»، وأشار إلى اللورد ليبتون، «فهو يقوم نيابة عني بذلك. ستجده على أتم استعداد لتقديم أية خدمات صغيرة ذات طبيعة تقتضي الكتمان قد تود إسنادها إليه». دفع بُويْل حساب الشاي وانسحب بهدوء ليستقل سيارة أجرة، وسمع، وهو يغادر الفندق، الجلبة وصوت لكمة وسقوط جسد ثقيل على الأرض الرخامية.

لم أجد في الكتاب وقائع من هذا النوع ولا إشارة ولو عابرة عن الأجيال المتتالية من قوادي الفندق ومؤهلاتهم، وإذا ما كانوا أجانب أم من أهل البلد، ولم أجد أية تفاصيل عن المترددين على الفندق من القادة والجنرالات والكتاب والجواسيس الذين أعرف أنهم أقاموا فيه في فترات مختلفة. كنت أطمع أن